(١) أحمد شوقى
لم يمت فى حادث سيارة!

كادت الحيرة أن تضنينا وتصيبنا فى مقتل.. وكان من أعظم مصادر تلك الحيرة التى دبت فى النفس.. هو البحث عن وسيلة أو طريقة موفقة فى اختيار وترتيب الأدباء والمفكرين والفنانين للحديث عن تفاصيل الأيام والساعات الأخيرة فى حياتهم.. لذا فقد كثرت الأمثلة وأحاطت بنا الاستفسارات بعدما استعرضت الأسماء المرشحة والتى وقع عليها الاختيار لتكون ضيوف أوراق عظماء الأدب والفكر!

وكانت بالفعل حيرة شديدة. ومن المؤكد أن غيرنا كان سوف يقع فيها!!.. لأن هالات العظمة كثيرا ما تخرص الألسنة وتصيب النفس بالقلق.. كما يتصور ذلك الباحث عن الحقيقة فى سير الخالدين والعظماء!

وبعد عدة مداولات.. كان صرفاها العقل والأوراق. وقع الاختيار عن يقين على أمير الشعراء أحمد شوقى. لكى يتقدم صفوف هؤلاء العظماء.. الذين نسعى من أجل الاقتراب من أيامهم

وساعاتهم الأخيرة قبل الرحيل.

ومما جعل كفة أحمد شوقى تميل إلى المقدمة. القناعة الشخصية التى استراحت لها نفس الكتاب دون الدخول فى ذكر تفاصيل ومبررات قد نختلف ونتفق عليها..!

إذن سوف نصاحب ويصاحبنا أمير الشعراء أحمد شوقى- ومنذ هذه اللحظات- فى رحلة الأيام والساعات الأخيرة التى ننشدها بصدق.. وكما هو حاصل من قبل..وعن إيمان ويقين ومعرفة أيضا، فإن الأيام الأخيرة أبدا لاتنشأ فى حياة الإنسان من فراغ.. ولايكون لها مقدمات. بل العكس هو الصحيح.. ذلك لأن الإنسان حياته مربوطة أحداثها بعضها البعض كل حدث فيها بطبيعة الحال. يؤدى إلى الآخر.. سواء شاء ذلك الإنسان أم رفض.!

ونحن على يقين أيضا بأن الأيام الأخيرة فى حياة الإنسان على الأرض تبدأ بداية فعلية منذ ولادته.. ولو اتبعنا هذه المقولة لاحتاج الحديث عن كل عظيم إلى كتاب أو أكثر!.. لكننا ومن أجل تحقيق وحدة المنهج وهدف هذه الأوراق.. نلجأ فقط إلى إعطاء مجرد إشارات ضوئية لبدايات الإنسان العظيم منذ ميلاده

ومثل ذلك لأهم الأعمال فى حياته دون تفصيلها.. ذلك لأن شاغلنا الأكبر يكون هو الوقوف لأكبر فترة ممكنة بجوار سرير العظيم نراقب حركاته وسكناته من قبل أن يسلم روحه لله.. ويخرج من عالمنا محمولا فوق الأعناق. فى طريقه إلى القبر!!

ولسنا فى حاجة إلى أن نعدد الأعمال الأدبية العظيمة التى أهلت شاعرا عظيما مثل أحمد شوقى ليكون من بين عظماء هذه الأوراق.. هذه الأعمال التى ظلت وستظل من العلامات المضئية والبارزة فى مسيرتنا الأدبية العربية.. برغم ما فى ذلك من خلاف بين النقاد.

ولن نقول فى هذا السياق مثلما قال الكاتب الصحفى الراحل مصطفى أمين من أن شوقى. كان فقط. شاعرا للملوك والأمراء.. لذا عندما مات خرج فى وداعه العديد من هؤلاء.!!

كما لن نقول مثلما قال العلامة الكبير الدكتور شوقى ضيف من أن أمير الشعراء. لم يغضب لوطنه. ولم يغضب لشعبه. وإنما غضب لأميره.!!

ويبدو أن أصول شوقى التركية وتربيته الأولى فى أحضان قصر الخديو إسماعيل وارتباطه بأولاد هذا الخديو وأحفاده هى التى جرت عليه هذه الأقاويل.. ومع ذلك كان لشوقى مواقف وطنية

عديدة.. استطاع الناقد وأستاذ الجامعة الطبيب الدكتور مصطفى الرفاعى أن يبين لنا بالصوت والصورة وبالكلمة العديد من تلك المواقف فى أحد كتبه عن أمير الشعراء.

وعلى أية حال.. وحتى لا نبتعد كثيرا عن حديث الأيام والساعات الأخيرة فى حياة شوقى تعالوا..نتتبع مسيرة هذه الساعات منذ ولادته فى شهر أكتوبر من عام ١٨٦٨ وحتى رحيله عن عالمنا فى شهر أكتوبر أيضا عام ١٩٣٢. وكان يبلغ من العمر آنذاك. أربعة وستين عاما. امتلأت جميعها بالمواقف الساخنة فى حياته.. ما بين السيف والقلم والترجمة والشعر والمسرح والسياسة أيضا.!

وتقول سطور تاريخ حياة أمير الشعراء إنه ولد بالقاهرة. وأن تاريخ ميلاده المدون فى شهادة الليسانس التى حصل عليها هو عام ١٨٧٠. وأحمد شوقى شأنه فى ذلك شأن العديد من عظماء مصر. سواء فى السياسة أو الأدب أو الفن.. الذين يدور الخلاف باستمرار حول يوم ميلادهم.. وتوفى أحمد شوقى فى الساعات الأولى من صباح يوم ١٤ أكتوبر عام ١٩٣٢..وكان الفارق الزمنى بين أكتوبر الذى ولد به والآخر الذى رحل فيه حوالى أربعة وستين عاما.

وتعلم شوقى فى مكتب الشيخ صالح فى عام ١٨٧٣ ثم فى مدرسة المبتديان ثم المدرسة الخديوية وتخرج فيها عام ١٨٨٣.. وهو نفس العام الذى انتهت فيه ثورة عرابى بالهزيمة النكراء التى ألحقت به وبقواته من الجنود المصريين.. وهو العام نفسه تقريبا الذى استقرت فيه قوات لاحتلال البريطانى فى مصر. وفى عصر الخديو توفيق.!

وعندما تخرج شوقى فى المدرسة الخديوية كان يبلغ من العمر ١٥ عاما. حيث أظهر تفوقا فى الدراسة فمنحه الخديو مجانية التعليم. بعد ذلك درس سنتين فى مدرسة الحقوق. ثم التحق بقسم الترجمة بالكلية نفسها فى عام ١٨٨٥ ولمدة سنتين.. حصل بعدها على الشهادة النهائية فى فن الترجمة فى عام ١٨٨٧.

وكان شوقى يتقن اللغتين الفرنسية والتركية.. ثم اللغة الإسبانية التى تعلمها فى منفاه. الذى أقام به منذ عام ١٩١٥ وحتى عام ١٩٢٠. وقد سافر قبل ذلك أيضا إلى فرنسا فى عام ١٨٨٨ وتعلم فى جامعتى مونبيليه وباريس لمده ثلاثة أعوام ثم أخيرا عاد إلى مصر فى عام ١٨٩٣.

وتعود أصول أسرة أحمد شوقى -- كما سبق وذكرنا - إلى الجذور التركية. حيث كان جده أحمد شوقى قد حضر من تركيا

فى عصر محمد على.. ولإجادته التركية والعربية عيّنه محمد على أمينا للجمارك المصرية بعدما ضمه إلى حاشيته..

أما جد شوقى لأمه فهو "أحمد حليم النجده لى" الذى جاء إلى مصر هو الآخر شابا فى عهد إبراهيم باشا.. تاركا بلدته "نجده".. وقد تدرج آنذاك فى المناصب حتى أصبح وكيلا للخاصة الخديوية فى عهد إسماعيل.

* * *

ومن الروايات التى ارتبطت بيوم ميلاد شوقى.. أنه بعد ولادته مباشرة اصطحبته جدته إلى قصر الخديو إسماعيل الذى رآه آنذاك وكان بعده مشدودا إلى السماء فبذر الخديو بذرة من الذهب حتى يجعل الطفل أحمد شوقى ينظر إلى الأرض. كما عاش شوقى آنذاك أيضا فى جو من الأبهة التى كانت تخص بالأمراء وأسرة الخديو. فتعرف إلى كبار القوم وكان من بينهم على باشا مبارك الذى عين والد شوقى بالخاصة الملكية.. ثم ألحق شوقى نفسه فى هذه الوظيفة فيما بعد.!

كما عاش أحمد شوقى طوال حياته فى كنف الأسرة الحاكمة.. خاصة أيام حكم الخديو إسماعيل وحفيده عباس حلمى الثانى.. الذى ظل يعيش فى رعايته حتى تولى السلطان حسين كامل حكم

مصر فأصدر أمرا بنفى أحمد شوقى خارج مصر فى عام ١٩١٥. وهى الفترة التى قضاها فى إسبانيا هو وعائلته لمدة ٥ سنوات!

ويقول بعض المؤرخين إن أمير لشعراء ظل يسخر أشعاره لمدح القصر والخديو حتى تم نفيه إلى إسبانيا حيث عرف فى المنفى المعنى الحقيقى للوطن وخرج شعره من ميدان المديح وذكر الفضل والإنسان إلى مناجاة الوطن.. ودليلهم إلى ذلك مجموعة القصائد التى كان يبعث بها إلى صديقه لشاعر حافظ إبراهيم.. حيث كان يناجى فيها وطنه. ومن هذه القصائد.. ما جاء من أبيات ذكر فيها شوقى:

يا ساكن مصر إنا لانزال على عهد الوفاء وإن غبنا مقيما
هلا بعثتم لنا من ماء نهركمو شيئا يبل به أحشاء صادينا

ويحلو للكاتب الكبير مصطفى أمين – بما لديه من قدرة على الغوص فى أعماق حياة المشاهير ومتعة فى كشف أستارهم وأسرارهم – أن يبصرنا بما هو بالفعل مستور خلف الجدران فيقول عن نشأة أحمد شوقى وبعض التواريخ فى حياة أجداده: كانت علاقة شوقى بعباس حلمى قبل ولايته العرش فى مصر.. علاقة صداقة وحب حقيقى.. وكان شوقى فى طفولته يتردد على قصر عابدين وكانت جدته إحدى جاريات الخديو إسماعيل

جد الخديو عباس واشتراها الخديو بمائة جنيه ذهبا.. وكانت يونانية تعلمت فى القصر اللغة العربية.. ثم أعتقها وزوجها لمترجمه "على أحمد بن حليم النجدة لى" وكانت الجدة اليونانية مغرمة بحفيدها أحمد شوقى حتى إنها ذهبت تحمله على كتفيها إلى قصر عابدين.

ويؤكد مصطفى أمين على ما ذكره أحمد شوقى فى مذكراته عن واقعة الذهب الذى نشره الخديو إسماعيل فى حضرة جدته.. فيقول: إن هذا هو سر بيت الشعر الذى يقول فيه شوقى:

أأخون إسماعيل فى أولاده وقد ولدت بباب إسماعيلا

وكان الطفل شوقى يلعب مع الأمير الصغير عباس فى طفولته فى حديقة قصر القبة، وعندما حصل على ليسانس الحقوق من باريس عينه موظفا فى قصر عابدين.. ولم تنقطع صلة شوقى بالخديو عباس يوما واحدا طوال حكمه.. كان يقابله كل يوم تقريبا.. وكان يطرب لقصائده فى مدحه وفى الدفاع عنه..

وقد وعده الخديو بأن يطلب من السلطان منحه رتبة الباشوية.. ولكن الإنجليز خلعوا الخديو عباس من العرش قبل أن ينفذ وعده.

ولا ننسى أن نتحدث فى هذا السياق عن حصول أحمد شوقى على رتبة أمير الشعراء.. وهناك خلاف كبير بين المؤرخين حول واقعة حصوله على هذه الرتبة.. لكن أكثر الروايات شيوعا.. ما قيل بإن المعجبين بأشعار شوقى فى كل البلاد العربية قد اتفقوا بعد عام ١٩١٩ على تنصيبه أميرا للشعراء بعدما فشل فى الحصول على رتبة الباشوية حتى أيام الملك فؤاد.. وكان من قبل يلقب بـ "شاعر الأمير".

وقد ترأس لجنة التكريم هذه الزعيم سعد زغلول. خاصة بعدما انضم شوقى إلى الهيئة الوفدية وترشيحه عضوا بمجلس الشيوخ عن الصحراء الشرقية.. وقد كتب عباس العقاد بهذه المناسبة سلسلة مقالات فى جريدة "البلاغ" لسان حال سعد زغلول آنذاك يهاجم فيها فكرة تنصيب شوقى أميرا للشعراء. وقابله سعد زغلول منتقدا إياه.. وفى هذه المقابلة عرفه بأنه يرأس لجنة التكريم.

وقال له العقاد يومها قولته المشهورة: "أنت زعيمى فى السياسة والوطنية ولكنك لست زعيما فى الشعر" !!.. كما قال أيضا: "إن الشعر ليس إمارة يعين أميرها.. بل هى جمهورية ينتخب رئيسها".

وهناك بخلاف ذلك. العديد من الأمور التى يجب التحدث فيها.. وهى تقترب كثيرا من حياة أمير الشعراء شوقى.. وذلك من قبل الوقوف على تفاصيل الأيام الأخيرة فى حياته.. من ذلك على سبيل المثال.. الحديث عن عاداته وتقاليده.. وبعض صفاته.. وأيضا حالاته النفسية حين كان يقرض الشعر.

لقد كان شوقى يخاف ركوب الطائرات.. ويبدو أن صديقه الموسيقار محمد عبد الوهاب قد حمل عنه نفس الخوف. إذ كان هو الآخر لايركب أبدا الطائرات فى تنقلاته الخارجية.. وكان يفضل عليها البواخر.

وأيضا كان شوقى يرفض أن يضع الكرافتة حول عنقه، وكان يضع بدلا منها البابيون.. كما كان يخاف عبور الشارع.. ولهذا كان يقف طويلا قبل أن يعبر من الرصيف الأيمن إلى الرصيف الأيسر.

وكان يقول لمن حوله إنه يتوقع أن تصدمه سيارة فى يوم من الأيام، وتحققت نبوءته وصدمته سيارة فى لبنان. ولم يكن يومها يعبر الشارع وإنما كان يجلس فى سيارة وصدمته سيارة أخرى قادمة بسرعة.. ونجا من الموت بأعجوبة وإن كان قد جرح فى عينه.. وكان طوال حياته – على حد قول المقربين إليه – يشكو من رمد عينيه.. وكانت أمراضه التى يشكو منها الكبد وضغط الدم وتقلص الشرايين.

ومما كان يضايق أحمد شوقى النقد والنقاد، فقد كان كثيرا ما يسارع إلى مقاطعة من يهاجم شعره فلا يصافحه إذا رآه فى مجلس. وإذا كان فى مجتمع ودخل الناقد عليه يبادر أحمد شوقى بالخروج ويغادر المكان.

ويؤكد العديد من النقاد فى هذا السياق.. أن أشد أعداء أحمد شوقى.. بخلاف العقاد كان إبراهيم عبد القادر المازنى وعبد الرحمن شكرى لأنهما تجرءا وهاجماه فى شبابه وفى مجده.!

أما عن كيف كان ينظم الشعر.. فقد ذكر أصدقاؤه أنه كان عندما يتهيأ لنظم أى قصيدة، يبادر بشرب ٥ بيضات نيئة ثم يغمغم وينساب الشعر من شفتيه.. كما كان ينظم شعره فى أى مكان.. سواء فى الشارع أو فى عربة الحنطور، فى قطار السكة الحديد أو فى عربة الترام. وكان دائما يدير القصائد فى ذهنه ثم يشرع بتدوينها على كراسة أو على غلاف كتاب أو علبة سجائر.

وكان الشعر يهبط عليه كالوحى. ويقول كل المحيطين به: "إن شوقى لم يكن أبدا يلقى أى قصيدة بصوته فى الاجتماعات العامة".. وكان أحيانا يدعو الصحفى المعروف فكرى أباظة أو السيسى الكبير حفنى محمود لإلقاء قصيدته.

ويروى لنا كل من الموسيقار الراحل محمد عبد الوهاب أقرب أصدقاء أمير الشعراء.. و الكاتب الصحفى كامل الشناوى.. كيف كان يقرض الشعر؟!

يقول عبد الوهاب: كان شوقى يكتب القصيدة ثم يقرأها على المقربين إليه من أصدقائه.. وكان وهو يقرأ القصيدة ينظر إلى الموجودين نظرات حادة حتى يلمس مدى تأثرهم بها.

أما الشاعر والأديب والصحفى الراحل كامل الشناوى فقال فى تعليقه على نفس الموضوع: لقد رأيت شوقى وهو يسجل خواطره.. كان يخيل إلىّ أنه مجنون أصيب بغتة بنوبة صرع.. كان يجلس بيننا ثم يقفز إلى مكان آخر ويخرج من جيب سترته علبة السجائر ويكتب فيها كلمات.. ويعود إلينا إذ يلحق به التعب والعرق يتصبب من جبهته. وعيناه مغرورقتان بالدموع وأنفاسه لاهثة.

وكانت هذه الحالة تنتابه طيلة معاناته فى نظم إحدى قصائده. فإذا فرغ من تسجيل خواطره ساعة بعد ساعة ويوما بعد يوم، وضع رأسه بين كفيه وأملى القصيدة كاملة على أحد المقربين.. ثم عاد إلى مراجعة الأوراق والقصاصات التى سبق أن سجل فيها هذه الخواطر.

ويقول الأديب أحمد محفوظ حد شهود عيان الأيام الأخيرة فى حياة شوقى.. إنه بعد إصابته بمرض تصلب الشرايين تغيرت عاداته.. فلم يعد يدخن. ولم يعد يشرب. ولم يعد يسهر إلى الثانية والثالثة صباحا. بل اقتصر على الحادية عشرة مساء.

كما لم يعد يأكل الأطعمة الدسمة فى الظهيرة والمساء.. ليس هذا فقط.. بل انكب بقوة على النظم والقراءة وكأنما كان يريد أن ينسى هموم مرضه.. وكان يعكف آنذاك على كتب الصوفية.. كما اقتصرت زياراته على بيت أحد أصدقائه وهو دار إسماعيل شيرين.

ويبدو أن إحساس أمير الشعراء بالرحيل كان قويا فى هذه الفترة بدليل أنه كان يحرص فى الشهور الأخيرة من هذه الحياة على حضور سرادقات العزاء.. لمن يعرفهم ومن لا يعرفهم أيضا.. وقد تطوع بعض أصدقائه لتسجيل أهم اللقطات فى أيامه الأخيرة.. وكان من بينهم الكاتب الصحفى مصطفى أمين الذى قال فيما سجله:

خرج أمير الشعراء يوم ٤ أكتوبر عام ١٩٣٢ فى الساعة الحادية عشرة صباحا قاصدا مكتبه فى شارع جلال. وهو الشارع الذى توجد فيه الآن جريدة الجمهورية. والمتفرع من شارع عماد الدين (محمد فريد)[1].

(١) وهو المقر القديم لجريدة الجمهورية حيث إن مقرها الآن شارع رمسيس.

وبعد أن راجع حسابات دائرته مع سكرتيره، عاد إلى داره فى الجيزة وتناول الغداء واستراح.. ثم ذهب إلى محل "صولت" الحلوانى بشارع قصر النيل وجلس مع صديقيه محمود فهمى النقراشى أفندى والدكتور محجوب ثابت.

ثم ذهب إلى عيادة الدكتور محمد مختار عبد اللطيف، حيث قال للطبيب: أنا أشعر بألم فوق قلبى، وكشف عليه الطبيب وقال له: ستعيش مائة سنة.. وقال له شوقى: إننى سأحتفل بعد ١٢ يوما ببلوغى سن الثانية والستين. قال له الدكتور مختار: معنى ذلك أن أمامك ٣٨ سنة أخرى لتعيشها!

وخرج من عيادة الدكتور متوجها إلى دار سينما "متروبول" وراء محلات شيكوريل. وجلس فى مقاعد الترسو "أى فى الدرجة الثالثة"!! وشاهد فيلما بوليسيا ثم خرج من السينما، ومشى على قدميه إلى جريدة الأهرام، وكانت آنذاك فى شارع مظلوم بباب اللوق، وأمضى بعض الوقت مع داود بركات رئيس التحرير، ثم ركب سيارته إلى دار الجهاد بشارع ناظر الجيش وراء ضريح سعد، وهناك أمضى بعض الوقت يضحك مع توفيق دياب والمحررين. ثم عاد إلى بيته بعد منتصف الليل.. خلع ملابسه وقرأ فى مجلة روز اليوسف والمصور والهلال.. ونام فى

سريره وأغفى. ومات وهو نائم فى الساعة الرابعة صباحا.

أما سكرتيره أحمد عبد الوهاب فقال فيما سجله فى مذكراته فى شهادته: كنا وقتئذ فى آخر يوليه عام ١٩٣٢، ولم يجف دمعنا بعد على شاعر النيل، ثم مضت بعد وفاته ثلاثة وثمانون يوما، وفى صبيحة اليوم الرابع والثمانين. وهو يوم ١٤ أكتوبر. طوى مصر وسائر الأقطار العربية نبأ فزعت فيه دولة الأدب بآمالها إلى الكذب، لأنه كان نبأ مفاجئا، ولأنها كانت تتمنى لشوقى حياة طويلة ولها من نبوغه ثروة جديدة.

وقبل أن يموت بأيام عاد فى المساء إلى داره "كرمة بن هانئ" فلما دخلها وقف بالحديقة قائلا لى: "ترى.. كم قبرا تسع هذه الدار؟!

فأصابتنى الدهشة وقلت له: ولماذا هذا السؤال يا باشا؟!!.. فقال: لاشىء، لكنه خاطر مر بنفسى، فذكرت الموت، وطالما خالجتنى ذكراه فى هذه الأيام. فهيأ أننى مت فماذا يكون؟!

– عشت لنا يا باشا.. فأنت أمير الشعراء، ولا روعت فيك مصر، ولا فُجع بك الشرق العربى.

– لا تخف فليس بالمصيبة العظمى وقد يكون منجاة من حسد حاسد أو حقد حاقد، والقبر أبقى من هذه الدار وهو لا يشغل

غير عشرة أمتار. أما هى فقد شغلت ٥ آلاف متر. فلو بنيت فى مكانها قبورا لاتسعت لـ ٥٠٠ قبر. أليس كذلك؟!

فأسقط فى يد السكرتير وعاد شوقى فاستأنف كلامه فقال:

– أى أم كرمة بن هانئ تشغل من الأرض ما يكفى ثلاثة آلاف من "الموتى".. فما أعظم طمعنا فى دار الفناء وقناعتنا فى دار البقاء.

– أراك اليوم تذكر الموت. وقد نهيتنا عن ذكره فى مجالسك وتمنيت لنا منه النجاة!

– نعم ولكنى ما خفته يوما.. وما ذممته قط ولالذت منه بالفرار. ولانقمت على الأقدار.. وردد قائلا:

أنا من لا يرى الفرار من الموت ومن لا يرى من الموت بدا
إنما الموت منتهى كل حى لم يصب مالك من الملك خلدا

ثم أضاف قائلا: إننى أشعر بتعب هذه الأيام وقد استهلك جسمى الضعف. وعصرتنى الشيخوخة. فما أبقت منى غير مخ فى عظام وروح فى رمام!.. وما أحسب أنى مقيم طويلا. فيا ترى على أية الحالتين يأتينى الأجل. أبعد الرقاد أياما أم فى غفلة من النفس وسنة من الحس؟!

وأضاف سكرتير أحمد شوقى الخاص عن أخريات أيام هذا العظيم:

وكنا فى أوائل أكتوبر عام ١٩٣٢ فاعتزمت جمعية القرش إقامة احتفال فى ١٤ أكتوبر من الشهر نفسه لافتتاح مصنع الطرابيش. ورغبت إليه أن يتوج هذه الحفلة بقصيدة من قصائده.. وبالفعل نظم لها إحدى القصائد..

وفيها أيضا تنبأ بموته وبرحيله..

وما درى أحد أن أمير الشعراء سيغادر عالم الشقاء فى اليوم الذى تلقى فيه آخر قصيدة له وهو على فراش الموت.

ففى اليوم السابق لهذا اليوم أحس شوقى بتحسن فى صحته. فطابت نفسه لصباح ذلك اليوم الذى ذاق فيه من متاع العافية والصحة مالم يذقه منذ سنوات.

وفى منتصف السابعة مساء هذا اليوم ركب أمير الشعراء السيارة.. وذهب للرياضة فى مصر الجديدة.. وفى عودته مر بأحد المطاعم فتناول فيه العشاء ثم توجه إلى دار الجهاد الصحفية. وعلم صاحبها ورئيس تحريرها الأستاذ توفيق دياب بقدوم أمير الشعراء فانتقل لاستقباله. فقدم له شوقى بك سيجارة. ولاحظ الأستاذ دياب أنه يسعل سعالا خفيفا.. ومكث شوقى إلى نحو الساعة الحادية عشرة فى جريدة الجهاد ونهض قائلا: "إنى ذاهب إلى دارى لأستريح وألتمس شيئا من الدفء".

وركب السيارة حتى وصل إلى داره بالجيزة وقبل أن يدخل غرفته وقف برهة فى الحديقة ودار بيننا الحوار السابق عن القبور والموت.. فسألته: يا باشا لقد ذكرت لى أنك بصحة جيدة فلماذا هذا الوهم المخيف؟!.. فقال لى: لا شىء.. لا شىء.. اذهب ونم.

وأوى أمير الشعراء إلى نومه، وعندما أراد النوم، اعتراه أرق وسعال، فتدثر حتى دفئ، لكنه لم يسكن إلى الدفء، ولم يطمئن إلى الفراش، وشعر بآلام فى صدره ثم ضيق فى تنفسه فأيقظ الخادم وأمره أن يقوم بإسعاف خاص بالتصلب الشريانى.. فلم يفده هذا الإسعاف فأمره أن يستدعى الدكتور جلاد، وأن يوقظ أسرته..

ويضيف أحمد عبد الوهاب سكرتيره الخاص: وكان الموت يسرع إلى أمير الشعراء الخطى، وينشر أجنحته على السرير. وعندما عاد الخادم فوجد سيده يجود بنفسه فطمأنه إلى حضور الطبيب فقال شوقى:

– لا أمل بعد الآن.. إن أمرى انتهى. فسلام على أولادى وأصدقائى!!

عندئذ حضرت السيدة زوجته وأولاده، فرأوه فى النزع الأخير فارتاعوا. وجاء الطبيب فوجد الشاعر العظيم يجود بأنفاسه

الأخيرة حتى الساعة الثانية بعد منتصف ليلة الجمعة ١٤ أكتوبر عام ١٩٣٢.. وقد أوصى أن يكتب على قبره هذين البيتين من قصيدته "نهج البردة":

يا أحمد الخير لى جاه بتسميتى وكيف لا تسامى بالرسول سمى
إن جل ذنبى عن الغفران لى أمل فى الله يجعلنى فى خير معتصم

ونتوقف عند آخر الشهادات التى صورت لنا الساعة الأخيرة فى حياة أمير العظماء أحمد شوقى.. وهذه الشهادة تأتى هذه المرة على لسان ابنه الأكبر حسين شوقى الذى كان يراقب عن كثب ساعات رحيل أبيه.. قال حسين شوقى إن عامى ١٩٣١و١٩٣٢ هما العامان اللذان اشتغل أبى فيهما أكثر من أى وقت آخر فى إنجاز رواياته التمثيلية. وكأنه كان يحس بدنو أجله.. ففى هذه الحقبة أتم مسرحيات "مجنون ليلى" ثم أعاد نظم "على بك الكبير" كما ألف "قمبيز" و "الست هدى".. وشرع فى وضع رواية عن "محمد على الكبير". ولكن هذا الاجتهاد كان مع الأسف على حساب جسمه الضئيل الذى ناله المرض. وقد أمره الأطباء بملازمة الحجرة إذ ذاك. ومنعوه من معظم متعه. لذلك صار سريع التهيج. فإذا قال له أحد الزائرين إن صحته ليست على ما يرام أو أن ملامح التعب تبدو عليه. كان لا يسمح لهذا الزائر بزيارته مرة ثانية!!

وكان لنا قريب ساذج إلى حد بعيد. فلما عرف أن أبى يتضايق ممن لا يطمئنه على صحته من زائريه، دخل عليه يوما ثم وضع كفه على جبين أبى قائلا: أظن يا سعادة البيك أنه لا توجد لديك حمى بتاتا، فارتاح أبى إلى هذا، إذ كان يشك فى وجود شىء من الحمى.. وليتأكد من ذلك وضع مقياس الحرارة فى فمه. وبعد دقائق قليلة أخرجه ثم ناوله إلى هذا القريب ليقرأ له درجة الحرارة لأن نظر أبى كان ضعيفا ولا يستطيع أن يحقق فى أرقام المقياس الصغير.. تأمله صاحبنا مليا ثم قال: ماشاء الله.. ماشاء الله.. إن حرارتك ٣٣ فقط يا سعادة البيك!!.. فصاح أبى مغضبا. أيها الجاهل لو كانت حرارتى ٣٣ كما تدعى لكنت ميتا الآن!

فى ذلك العهد كنا نخفى عنه ما كان يظهر فى بعض الصحف من نقد، خاصة لرواية "قمبيز" حتى لا تضايقه وهو فى مثل هذه الحالة، لأنه كان حساسا جدا فيما يتصل بمؤلفاته بخاصة شعره الذى كان فخورا به إلى حد بعيد.

وكانت تسليه خلال هذه المدة إلى جانب اجتهاده فى إنجاز رواياته، القراءة التى يقوم بها بدلا منه سكرتيره أحمد أفندى عبد الوهاب، وكان يميل إذ ذاك إلى كتب الفلسفة الإسلامية..

كما لم يمنعه اعتكافه من أن يلبى رجاء أية جمعية تطلب منه قصيدة لغرض وطنى أو خيرى. وآخر قصيدة نظمها فى هذا السبيل. قصيدته فى مشروع القرش.. إذ كانت تلاوتها يوم وفاته.

وكان أبى يحتفظ فى أيام اعتكافه الأخيرة "بملبس" فى درج مكتبه لكى يستدرج به إلى حجرته حفيديه أحمد وبوله وهى إقبال ابنة أختى الوسطى.. وكان يسمى هذا الملبس الطعم، مرددا بقوله: أتظنون أن هؤلاء الشياطين كانوا يحضرون لزيارتى لولاد؟! كلا إذ بالله ما مصلحة أمثالهم فى ممازحة شيخ هرم مثلى؟!

وفى يوم وفاته -هكذا يواصل حسين حديثه- فى ١٣ أكتوبر سنة ١٩٣٢، خرج أبى يتريض بالسيارة مع سكرتيره فى ضاحية مصر الجديدة وقد تحدث معه يومها فى موضوعات دينية، وقد سأله بوجه خاص، وكأنه قد أحس بدنو أجله، عن التوبة والغفران وهل هو يتذكر نصا صريحا عنها فى القرآن الكريم؟!

فإن ما ملأه من ذاكرته لا يكاد يختلف عما سجله فى بضعة أيام متفرقة إلا فى كلمة. أو كلمتين فقط.

ويضيف كامل الشناوى: كان شوقى مؤمنا بأنه شاعر له أعماق وجذور.. كما كان يؤمن بأنه سيعيش بشعره آلاف السنين، ولم

يكن يخفى هذا الإيمان. بل عبر عنه فى إحدى قصائده حين قال:

وأنا الذى أرثى الشموس إذا هوت فتعود سيرتها إلى الدوران

وفى محاولة علمية جديرة بالذكر والتسجيل قام بها أساتذة من كلية الآداب جامعة القاهرة.. استطاعوا أن يسجلوا أعمال هذا العظيم فى ببلوجرافيا إلكترونية دخل فيها ولأول مرة الكمبيوتر.. بالاشتراك مع صديق عمره شاعر النيل حافظ إبراهيم.. وقد جاء فى هذه الببلوجرافيا. أن عدد أبيات الشعر غير المسرحى التى كتبها شوقى بلغ ٢٤ ألف بيت فى ٨٥ قصيدة. أما عدد الرسائل الجامعية التى تناولت حياة أمير الشعراء وشعره فبلغت حتى عام ١٩٨٣، ٣٥ رسالة جامعية منها عشر رسائل متخصصة فى مختلف جامعات مصر.

* * *

وكما هو معروف لنا جميعا.. فإن مظاهر الحياة وفتوتها لا تدوم أبدا. وكلما زحفت السنون بالإنسان مهما كان ثقله ومكانته فهو حتما ذاهب إلى زوال.. وتلك هى حكمة الحياة، وأيضا إحدى معجزات الخالق العظيم..

وشاعرنا الكبير أحمد شوقى.. قد عاش فى ضوء هذه القاعدة.. بل وشعر بما فيها من آلام وحسرات.. إذ بدأت بالفعل عبر واد

الرحيل وعلاماته المميزة تزحف ناحيته دون أن يستطيع بأشعاره أن يوقف زحفها!

وكلما كانت تمر عليه الأيام وتزحف على حياته السنون.. كلما كانت ساعاته الأخيرة تقترب عن ذى قبل حتى بات ينتظر الرحيل الأخير -الذى تنبأ به- كما سوف يمر علينا بعد قليل.. وكانت لهذا الرحيل علامات رأينا من الضرورى الوقوف عليها من قبل الوصول سويا إلى المحطة لأخيرة التى من بعدها اختفى أمير الشعراء عن عالمنا.

لقد ذكر معظم أصدقاء أمير الشعراء.. أنه أصيب فى أخريات سنوات حياته بمرض تصلب شرايين القلب. وهذا المرض هو الذى عجل بحياته.. وسط إهماله له.. وإقباله الشره على تناول الأطعمة بجميع أنواعها.

ويؤكد أحد هؤلاء الأصدقاء أن أمير الشعراء اكتشف هذا المرض حين أبلغه به طبيبه الخاص الدكتور حسين برسكا فى أواخر عام ١٩٣٠.

عندئذ لم يكتف بطبيب واحد لمباشرة حالته الصحية بل جمع حوله كل أطباء الدنيا لإنقاذه.. وكان من بين هؤلاء الدكتور سليمان عزمى كبير أخصائى القلب فى هذا الوقت.

والغريب أن شوقى برغم مرضه فى هذه السنوات قد تمكن وباقتدار -كما يقول ذلك النقاد- من الانتهاء من نظم أشهر وأخلد مسرحياته "مجنون ليلى" و"قمبيز".. و"على بك الكبير" التى ألفها وهو على فراش المرض.

* * *

ويقول ابنه عن آخر أيامه:

زار فى مساء اليوم نفسه الأستاذ توفيق دياب بك فى مكتبه بجريدة الجهاد. فقد كان أبى يحب الأستاذ دياب ويرتاح إلى مداعباته.. وقد توفى فى حوالى الساعة الثانية صباحا.. أيقظنى الخادم قائلا:

إن أبى تعبان وإنه أرسله فى طلبى. كما أرسله فى طلب أمى. فأسرعت إلى حجرته فوجدت أمى بجانب السرير قلقة تناديه: ما بك؟ ما بك؟!

ولكنه لا يجيب إذ كانت روحه قد فاضت.

* * *